

التلقي عند الفلاسفة المسلمين

(الفارابي وابن سينا)

د.خيرية عمر التائب

kuitiaaltaied@yahoo.com

ملخص البحث:

يحاول البحث الكشف عن نظرية التلقي عند بعض فلاسفة الإسلام ومحاولة تأصيلها، فالشاعرية تحددها صدمة الغرابة التي يحدثها التقاء النص بالمتلقي عند الفارابي، أما ابن سينا فإنه يربط عملية التلقي بالمُخَيَّل.

A summary of the research:

Trying to seek the disclosure of the theory of scaling when some philosophers Islam attempt determined by the strange shock caused by the confluence of the text the recipient's mailbox is set up when Farabi, either to Ibn Sina linking the process of scaling to fiction.

مفهوم التلقي:

التلقي في اللغة الاستقبال (ابن منظور، 1970، مادة لقي)، فمعنى قوله تعالى: "إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ" (سورة النور، الآية 15) أي يأخذ بعضكم عن بعض (ابن منظور، 1970، مادة لقي)، وأما قوله: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ" (سورة البقرة، الآية 36) فمعناه أنه أخذها عنه، "أي تعلمها ودعا بها" (ابن منظور، 1970، مادة لقي).

ومفهوم الاستقبال في النقد الأدبي ولدى أصحاب نظرية التلقي تحديداً هو التركيز - في عملية الإبداع - على محورين هما (القارئ والنص)، والقارئ هو المحور الأهم والمقدم في عملية التلقي (هلب، 1992، 111)، وتكمن أهميته من خلال "دوره الفعال ذاتاً واعية لها نصيب الأسد من النص وإنتاجه، وتداوله، وتحديد معانيه" (أبو هنيف، 2005، 180). وعلاقة القارئ بالنص "علاقة حرة غير مقيدة" (هلب، 1992، 30)، مفتوحة على العديد من التأويلات فليست "علاقة جبرية موظفة لخدمة نظام أو طبقة كما في الماركسية، وليست علاقة سلبية كما هي في المذهب الرمزي" (عبد الواحد، 1996، 17-18).

وقد نضج مصطلح التلقي بوصفه منهجاً نقدياً في ستينيات القرن العشرين على يد هانز روبرت ياكوبس و وولفغانغ إيزر لكن هذا النضج سبقه حضور عند النقاد المسلمين، وإن لم يكن حضوراً متكاملًا، فقد ظهر في حنايا النظريات النقدية التي يحاولون إثباتها، ومن هؤلاء النقاد الفيلسوفان الفارابي وابن سينا.

أولاً : التلقي عند الفارابي

تبدأ عملية إبداع النص عند الفارابي حال التقاء النص بالمتلقي وذلك في قوله: "إنما يصير أفضل وأكمل بألفاظ محدودة: إما غريبة وإما مشهورة" (الفارابي، 1971، 171).

وإن رأي الفارابي أن جمال لغة الشعر في محدوديته؛ غير أنه فرق في أن تكون هذه اللغة إما غريبة وإما مشهورة (الفارابي، 1971، 171).

فالمتلقي يكمن في هذا التفريق، ويظهر ذلك في توضيح ابن رشد لمفهوم (الغريب والمشهور) لدى الفارابي فيقول: "الألفاظ المستولية هي الألفاظ الخاصة بأهل لسان ما مشهورة عندهم

مبتذلة دالة على المعاني التي وضعت لها من غير توسط. أما الغربية فهي الألفاظ التي هي غير مبتذلة عند جمهورهم، وغير مستعملة عندهم، بل إنما يستعملها الخواص منهم" (الفارابي، 1971، 171).

ولأن "الغريب" لغة خاصة فإنه سيحوي قدرًا من الانحراف عن اللغة المألوفة "المشهور" من جهة، وسيكون هناك تفاوت في إدراك جماليته للخاصة من جهة أخرى.

ويبرز التفاوت بين المتلقين في تحديد جماله عند حديثه عن الطبقة الخاصة من المتلقين وهم فئتان: الفئة الأولى (الجمهور وكثير من الشعراء) والفئة الثانية هم (القدماء):

فالجمهور وكثير من الشعراء يقولون بأهمية الوزن دون اعتبار المحاكاة وطبيعة الألفاظ "فيرون أن القول شعر متى كان موزوناً مقسوماً بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية، وليس يبالون كانت مؤلفة مما يحاكي الشيء أم لا، ولا يبالون بألفاظه كيف كانت بعد أن تكون فصيحة في ذلك اللسان بل يؤثرون منها ما كان مشهوراً سهلاً" (الفارابي، 1971، 172).

أما القدماء فيرون أن المحاكاة والوزن جوهر الشعر وقوامه "فقوام الشعر وجوهره عند القدماء هو أن يكون قولاً مؤلفاً مما يحاكي الأمر وأن يكون مقسماً بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية" (الفارابي، 1971، 172).

يظهر في التحديد السابق للغة الخطابة والشعر أن الفارابي قد عين نوعين من المتلقين هما:

1- المتلقي العام:

وهو من يوجه إليه القول لغرض الإقناع أو التأثير؛ فإن كان الغرض إقناعه ووجه إليه القول مباشرة في صورة خطابية خالية من المحاكاة، وقد تستعمل الخطابة "أشياء من المحاكاة يسيراً، وهو ما كان قريباً جداً واضحاً مشهوراً عند الجميع" (الفارابي، 1971، 173) والمراد بالجميع هو المتلقي العام.

ويفهم من تحديد لغة الخطابة لغة الشعر، فالغاية من الشعر التأثير؛ وعليه تكون لغته الموجهة للمتلقي قائمة على المحاكاة سواء كانت قريبة أم محاكاة بعيدة لغرض التأثير فيه .

كما تتضح طبيعة اللغة الشعرية في عدول بعض الشعراء عنها واستبدالها بلغة الإقناع ف"كثير من الشعراء الذين لهم أيضاً قوة على الأقاويل المقنعة يضعون الأقاويل المقنعة ويزنونها" (الفارابي، 1971، 173).

2- المتلقي الخاص:

يظهر المتلقي الخاص في التفاوت في إدراك مادة الشعر والخطابة، فاستخدام الخطيب للمحاكاة "أزيد مما شأن الخطابة أن تستعمله" (الفارابي، 1971، 173) فيشكل على بعض المتلقين جنس المادة المقدمة "فيكون قوله ذلك عند كثير من الناس خطيباً بالغة، وإنما هو في الحقيقة قول شعري قد عدل به عن طريق الخطابة إلى طريق الشعر" (الفارابي، 1971، 173). كذلك استخدام الشعر لمادة الخطابة يكون "عند كثير من الناس شعراً، وإنما هو قول خطيب، عدل به عن منهاج الخطابة" (الفارابي، 1971، 173).

هدف الشعر من المتلقي:

إن غاية العملية الشعرية النهوض بالمتلقي "نحو فعل الشيء الذي خيّل له فيه أمر ما من طلب له، أو هرب عنه، ومن نزاع أو كراهة له، أو غير ذلك من الأفعال أو إساءة أو إحسان" (الفارابي، 1971، 175) ووسيلته في ذلك المحاكاة التي تقوم بدورها بتلمس "القول المؤلف مما يحاكي الشيء تخيّل ذلك" (الفارابي، 1971، 174) ويساند المحاكاة الوزن، فالوزن عنده العنصر الثاني في إحداث عملية التأثير فهو "المكمل للمحاكاة التي تميز الأسلوب الشعري، لا يفقد الشعر بفقدانه شعرته بل تنخفض منزلته إلى القول الشعري" (الجوزو، 1981، 22).

والتخييل هو هدف المحاكاة للوصول من خلاله إلى التأثير في المتلقي، والفعل المتأني من التخييل يتلخص في وضع المتلقي في حالة شعورية مرهفة وتحريكه نحو القبول والنفور" (البوسفي، 1992، 234).

التخييل عند الفارابي:

يندرج التخييل عند الفارابي في ثلاث مستويات هي:

أ- **المستوى الأول:** تخييل الشيء نفسه، وهو التخييل البسيط أو القريب (التقريبي) كقول الخنساء (الخنساء، 2002، 19):

أَلَا تَبْكِيانِ الجُرِيءِ الجَمِيلِ أَلَا تَبْكِيانِ الفَتَى السَّيِّدَا ؟

و يرى الفارابي أن هذا المستوى من التخييل يمكن تلمسه في الأقاويل العلمية بتعريف الشيء في نفسه (الفارابي، 1971، 174).

ب- **المستوى الثاني:** تخييل وجود الشيء في شيء آخر، وهو التخييل المركب أو المجازي كقول بشار (بن برد، 1976، 35):

كَأَنَّ مُنَارَ النَّعْمِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وقد شبه الفارابي هذا المستوى بالبرهان في الأقاويل العلمية (الفارابي، 1971، 174) فنحن لا ندرك . مثلاً- كروية الأرض ودورانها إدراكاً مباشراً بل من خلال البراهين التي قدمها علماء الفلك والجغرافيا، كذلك لا نستطيع إدراك قوة المعركة وشراستها إلا من خلال التشبه الذي قدمه الشاعر.

ج- **المستوى الثالث** التخييل البعيد:

وهذا النوع من التخييل يكون بتخييل الشيء بواسطة أكثر، فيتخييل "الشيء" بما يحاكيه بلا توسط ويتخييل بتوسط شيء واحد وبتوسط شيئين على حسب القول الذي يحاكي الشيء" (الفارابي، 1971، 175).

وهذا النوع من التخييل تكون العلاقة فيه بين المحاكي والمحاكى أبعد من سابقه لأنه يحتاج في إدراكها إلى أكثر من واسطة وذلك كقول أبي نواس (أبو نواس، 1998، 54):

إِذَا وَلَجَ البَعِيرُ فَرَوْغُ صَبْرِي عَنِ الصَّهْبَاءِ فِي سَمِّ الحَيَاطِ

وهو المستوى المحبذ والمرغوب عند المتلقين ف"كثير من الناس يجعلون محاكاة الشيء بالأمر الأبعد أتم وأفضل من محاكاته بالأمر الأقرب" (الفارابي، 1971، 175).

أثر التخيل في المتلقي:

غاية التخيل عند الفارابي إحداث الإذعان والانقياد من جهة المتلقي للقول المقدم إليه "فإن أفعال الإنسان كثيراً ما تتبع تخيلاته، وكثيراً ما تتبع ظنه أو علمه، وكثيراً ما يكون ظنه أو علمه مضاداً لتخيله فيكون فعله بحسب تخيله لا بحسب ظنه به أو علمه" (الفارابي، 1971، 175). فكلنا ندرك بعلمنا ووطننا أن النمر والذئب والضبع وحوش فتاكة غير مستأنسة للإنسان، كما يرفض الإنسان التفرد والوحدة، لكن سماعنا لقول الشنفرى: (الشنفرى، 1992، 10)

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسٌ وَأَرْقَطٌ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءٌ جِيْلٌ
هُمُ الرَّهْطُ لَا مُسْتَوْدِعُ السِّرِّ دَائِعٌ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُحْدَلُ

سيعث في الذهن فكرة الاستئناس للحيوان وكراهية العالم الإنساني.

ثانياً: التلقي عند ابن سينا

يعد ابن سينا المتلقي عنصراً أساسياً لتشكيل العملية الإبداعية الشعرية، ف"الشعر هو كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة" (ابن سينا، 1982، 161) وإن كان وجود المتلقي في هذا التعريف ليس واضحاً، لكنه يتضح تمام الوضوح في شرحه لكلمة (مخيل) ف"المخيل هو الكلام الذي تدعن له النفس، فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور، من غير روية وفكر واختيار بالجملة تنفعل له انفعالاً نفسانياً غير فكري" (ابن سينا، 1982، 161). فيبرز المتلقي في هذا القول من خلال مهمة التخيل في الشعر، ودوره في إلهام المتلقي والتأثير فيه.

طبيعة التخيل:

التخيل خارج عن إطار الحقيقة، وإن كانت العلاقة بينهما ليست علاقة ضدية لكنها في الوقت نفسه ليست علاقة تأطيرية أو حتى تلازمية، وإنما هي تفرد كل عنصر بذاته قد يلتقيان وقد يفترقان "والقول الصادق إذا حَرَفَ عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس فرما أفاد التصديق والتخيل معاً" (ابن سينا، 1982، 161). وذلك كالقول: (إن الكافر مهما قَدَّم من خير فلن ينفعه ذلك ولا يعدُّ له) فهذه حقيقة ولكن قوة الالتفات والانتباه لها لن تكون كالانتباه

إلى قول الله تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ" (سورة إبراهيم، الآية 21). "وربما شغل التخيل عن الالتفات إلى التصديق والشعور به" (ابن سينا، 1982، 162). كقول أبي تمام يمدح محمد بن يوسف (الأعلم الشنمري، 2004، 395):

فَصُرِّبَتْ الشِّتَاءَ فِي أَحَدَعَيْهِ ضَرْبَةً عَادَرْتُهُ عَوْدًا⁽¹⁾ رَكُوبًا⁽²⁾

لَوْ أَصَحْنَا مِنْ بَعْدِهَا لَسَمِعْنَا لِقُلُوبِ الْأَيَّامِ مِنْكَ وَجِيبًا

فإن هذا خارج عن التصديق والواقع لكن النفس تنجذب إليه.

كيف تحدث عملية التخيل؟

في قول ابن سينا "والمخيل هو الكلام الذي تدعن له النفس" (ابن سينا، 1982، 161) تكمن نقطة الالتقاء بين النص والمتلقي؛ فكي تتم عملية الإذعان لابد من وجود مخيلة شعرية تمكن المتلقي من استيعاب النص المتخيل، وكي تتمكن المخيلة من إذعان المتلقي أيضا لابد أن يكون النص المقدم مبنيا بناء تخيلياً. ف"العملية تبدأ بالصورة المخيلة التي تنطوي عليها القصيدة والتي تنطوي. هي بذاتها. على معطيات بينها وبين الإثارة المرجوة علاقة (...). وتحدث العملية فعلاً عندما تستدعي خبرات المتلقي المختزنة معطيات الصورة المخيلة فيتم الربط. على مستوى اللاوعي من المتلقي. بين الخبرات المختزنة والصور المخيلة" (عصفور، 1981، 196).

فابن سينا يلتقي مع الفارابي في إثبات أن الهدف من الشعر هو انقياد المتلقي نحو القول المخيل ف "المخيل هو الكلام الذي تدعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تفعل له انفعالاً نفسانياً غير فكري" (ابن سينا، 1982، 161).

وهذا الإذعان يكون متولداً عن القوة المتخيلة للمتلقي فالقوة المتخيلة. التي هي نظير القوة المخيلة للمبدع. "هي القوة الفاعلة في الجوانب الذاتية للإنسان، إن القوة المتخيلة تسيطر على

¹ - عوداً: المسن من الإبل، السابق، ج 1، ص 395.

² - ركوباً: المذلل للركوب، السابق، ج 1، ص 395.

القوة النزوعية عند الإنسان فإذا استثير التخيل انفعلت القوة النزوعية وتحركت في الاتجاه الذي تفرضه حركة التخييل" (عصفور، 1981، 198).

والمحدث لعملية الإثارة في مخيلة المتلقي هو التعجيب ف"التخييل إذعان، والتصديق إذعان، لكن التخييل إذعان للتعجب والالتذاذ بنفس القول" (ابن سينا، 1982، 161).
و"التعجيب سمة كامنة في المحاكاة يمكن أن تقرن تلقائياً بالغرابة التي تثير الإحساس بالعجب وبالدهشة استناداً إلى فاعلية التخيل التي يمتلكها كل من المبدع والمتلقي" (الزعي، 2007، 148).

والغرابة تحدث من "تحريف القول عما هو معتاد" (الزعي، 2007، 149). والانحراف يحدث بمفارقة المألوف ف"الشعراء يجتنبون استعمال اللفظ الموضوع ويحرصون على الاستعارة حرصاً شديداً حتى إذا وجدوا اسمين للشيء أحدهما موضوع والأخر فيه تغير مالوا إلى المغير" (ابن سينا، 1982، 217).

وتأثير التحريف واضح في قوله: "والقول الصادق إذا حرف عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس، فرمما أفاد التصديق والتخييل معاً وربما شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق والشعور به" (ابن سينا، 1973، 162).

والتحريف مسؤولية المحاكاة التي تقوم بتحقيق التأثير النفسي لدى المتلقي عن طريق الاختراع والإبداع ف"التخييلات والمحكيات لا تحصر ولاتحد، وكيف والمحصور هو المشهور أو القريب، والقريب أو المشهور غير كل ذلك المستحسن في الشعر بل المستحسن فيه المخترع المبتدع" (ابن سينا، 1973، 162-163)، فالتخييل من شأنه أن "يجعل الخطاب ينزع نحو الغرابة" (اليوسفي، 1992، 363).

وفي قول ابن سينا: "أن القول يرشق بالتعير، والتعير هو أن لا يستعمل كما يوجبه المعنى فقط، بل يستعير ويبدل ويشبه" (ابن سينا، 1982، 202) إشارة إلى الانحراف التركيبي في بناء الجملة، وما يترتب على هذا الانحراف من تحول دلالي في بنية النص الذي يتولد عنه الإغراب.

والاختراع في تركيب القول لكونه غريب عن المؤلف والمشهور من شأنه أن يثير التعجب عند المتلقي، ف"الغرابية هي تولد الإحساس بالدهشة والعجب لما تحمله من مفاجأة أو صور مفارقة للمألوف" (الزعيبي، 2007، 149) فتدعن النفس. كما إن الغرابية ترتقي بالأسلوب الأدبي عن الابتدال والسوقية فتبث الدهشة والتعجب في نفسه، ف"الرونق المستفاد بالاستعارة والتبديل سببه الاستغراب والتعجب، وما يتبع ذلك من الهيبة والاستعظام والروعة" (ابن سينا، 1982، 203).

وسائل المحاكاة للتأثير في المتلقي:

حدد ابن سينا "الأمر التي تجعل القول مخيلاً" (ابن سينا، 1973، 163) وذلك من جهة تأثيرها في المتلقي لخلق التعجب فيه:

1- أمور تبعث العجب لذاتها من غير حيلة "بل يكون نفس اللفظ فصيحاً من غير صنعة فيه، أو أن يكون نفس المعنى غريباً من غير صنعة إلا غرابية المحاكاة والتخييل الذي فيه" (ابن سينا، 1973، 163).

2- أمور تبعث العجب لحيلة في اللفظ أو في المعنى (ابن سينا، 1973، 163) ومحصلها أن يقوم الشاعر بدمد البنية اللغوية المتعارفة فيعدل عن الطريقة المعتادة في تشكيل الكلام وتعليق بعضه ببعض، عندها يكون التعجب صادراً عن حيلة في اللفظ والمعنى. وهذه الأمور الباعثة للعجب سواء بذاتها أو بحيلة هي (اليوسفي، 1992، 203- الزعيبي، 2007، 150):

- أ- الوزن وهو متعلق بزمان القول.
 - ب- اللفظ وهو متعلق بالمسموع من القول.
 - ت- المعنى وهو المتعلق بالمفهوم من القول.
 - ث- اللفظ والمعنى وهو المتردد بين المفهوم والمسموع من القول.
- الهدف من عملية التخييل:

إن الغاية من الشعر عند ابن سينا هي التأثير في المتلقي، إما لتوجيهه نحو غرض مدني لفعل محدد أو انفعال محدد، كالمديح للشهرة والعطية، والهجاء لإنزال قدر الخصم، والوسيلة في ذلك المحاكاة ف"كل محاكاة إما أن يقصد بها التحسين، وإما أن يقصد بها التقبيح، فإن الشيء إنما يحاكي ليحسن أو يقبح" (ابن سينا، 1973، 162)، وإما أن يقصد فيه التعجب وحده، ويشترك في هذه الغاية العرب واليونان (ابن سينا، 1973، 162)، فقد كانت العرب "تشبيهه كل شيء لتعجب بحسن التشبيه" (ابن سينا، 1973، 170).

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، رواية قالون عن نافع.
- 1-الأعلم الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى، دراسة وتحقيق، إبراهيم نادن، قد له وراجع محمد بنشريفه، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 2004.
- 2-الجوزو، مصطفى، نظرية الشعر عند العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، (د.ط)، 1981.
- 3-الخنساء، تناصر بنت عمرو بن الحارث بن شريد، ديوان الخنساء، تح: حمدو طماس، دار المعرفة بيروت، (د.ط)، 2002.
- 4-الزعيبي، زياد، المتناقفة وتحولات المصطلح دراسة في المصطلح النقدي عند العرب، وزارة الثقافة عمان الأردن، ط1، 2007.
- 5-ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله، الخطابة من كتاب الشعر، تح: محمد سليم سالم، إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط) 1982.
- 6-الشنفرى، عروة بن الورد، تأبط شرا، السليك بن السلكة، ديوان الصعاليك، تح: يوسف شكري فرحات، دار الجيل بيروت، (د.ط)، 1992.
- 7-طاليس، أرسطو، فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، تح: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، (د.ط)، 1973.
- 8-عبد الواحد، محمود عباس، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة، دار الفكر العربي، مدينة نصر، ط1، 1996.
- 9-عصفور، جابر، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ط)، 1981.
- 10-بن برد، بشار بن برد، ديوان بشار بن برد العقيلي، جامع محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، (د.ط)، 1976.

- 11- الفارابي، تلخيص أرسطو طاليس في الشعر، أبو الوليد بن رشد، ومعه جوامع الشعر للفارابي، تح: محمد سليم سالم، القاهرة (د.ط)، 1971.
- 12 - ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن كرم، لسان العرب المحيطة، دار لسان العرب، بيروت، (د.ط)، 1970.
- 13- أبو نواس، أبو علي الحسن بن هانئ، عمر الفاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، (د.ط)، 1998.
- 14- هلب، روبرت س، نظرية الاستقبال رؤية نقدية، ت: رعد عبد الجليل، دار الحوار اللاذقية، 1992.
- 15- أبو هنيف، عبد الله، نظرية التلقي في النقد الأدبي العربي الحديث، مجلة جامعة البعث، المجلد 27، العدد 11، 2005.
- 16- اليوسفي، محمد لطفي، الشعر والشعرية الفلاسفة والمفكرون العرب ما أنجزوه وما هفوا إليه، الدار العربية للكتاب، ط1، 1992.